البَابُ الثَالِثُ وَالعِشْرُون

معنى وصول العبد

[وصولك إليه وصولك إلى العلم به ، وإلا فجلّ ربنا أن يتصل هو بشىء] .

قلت : قد ذكر أهل الفن فى هذا المقام اصطلاحات وألفاظًا تداولوها بينهم تقريبيًا لفهم المعانى .

فمنها : السير ، والرحيل ، وذكر المنازل ، والمناهل ، والمقامات .

ومنها : الرجوع ، والوقوف ، وكل ذلك كناية عن مجاهدة النفوس ومحاربتها ، وقطع العوائق والعلائق عنها . أو الوقوف مع شىء منها ، وسيأتى للمؤلف : لولا ميادين النفوس ماتحقق سير السائرين .

ومنها : الوصول ، والتمكين ، والسكون والطمأنينة .

ومنها : المشاهدة ، والمكالمة ، والمجالسة ، والمساورة ، وغير ذلك ، وكل ذلك كناية عما أدركته أرواحهم ، وذاقته أسرارهم : من عظمة الحق وجلاله ، وسيأتى تفسير شىء من ذلك فى محله إن شاء الله .

ومعنى الوصول عندهم تحقيق العلم بوجوده وحده ، فوصولك إليه هو شعورك بعدمك حتى يكون عدمك عندك ضروريًا ، وعلمك بوجوده كذلك ، وهذا الأمر كان حاصلا لك فى نفس الأمر ، لكن لم تشعر به وفى هذا المعنى قال بعضهم ، وبعضه للششترى :

بَيْنَ طُلُوعٍ وَنُزُولْ   تَخَبَّلَتِ الْغُزُولْ
أَفْنِ مَنْ لَمْ يَكُنْ   يَبْقَ مَنْ لا يَزُولْ

فالزوال هو المعرفة : وهو معنى الوصول ، وسببها جولان الفكرة ولذلك أمره بها .

وقال شيخ شيوخنا سيدى على : الناس كلهم يشاهدون ولايعرفون . وسمعت شيخنا يقول : الناس كلهم فى البحر ، أى فى بحر الوحدة ، ولكن لايشعرون ، فوصول العبد إلى الله تحقيق العلم بوجوده ، والغيبة عن نفسه ، وعن كل ماسواه ، وإلا تكن كذلك بأن تعتقد أن الوصول يكون حسيًّا فجلّ ربنا : أى تعالى وترفع أن يتصل به شىء للزوم تحيزه ، أو يتصل هو بشىء للزوم افتقاره وحصره ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

واعلم أن هذا العلم بالله يكون كسبيًّا ثم لايزال يغيب عن نفسه وحسه ، سكرة بعد سكرة ، وحيرة بعد حيرة ، حتى يصحو وينجلى عنه ضباب الحس ، وسحاب الجهل ، وظلمة النفس ، فتشرق عليه شمس النهار ، وتنجلى عنه ظلمة الأغيار ، وفى ذلك قيل :

لَيْلِى بِوَجْهِكَ مُشْرِقٌ وَظَلَامُهُ فى النَّاسِ سَارِ
النَّاسُ فى سَدَفِ الظَّلَامِ وَنَحْنُ فى ضَوْءِ النَّهَارِ

أى ليل وجودى صار مشرقًا مضيئًا بسبب شهود ذاتك ، وظلام ليل القطيعة سار فى جلّ الناس . الناس فى جوف ظلمة الأكوان ، ونحن فى ضوء شموس العرفان ، ثم لايزال فى تربية الشيخ وتحت حضانته ومدده ، سار إليه بقدر صدقه حتى يسلم له خصيم الغرق الظلمانى ، ويحس ذلك من نفسه ، فحينئذ يقول بلسان الحال : أقرَّ الخصم فارتفع النزاع ، فإذا انفرد الخصم النورانى استمد من كل شىء ، وشرب من كل شىء ، وأخذ النصيب من كل شىء ، فيبقى وصوله إلى الواسطة شكرًا وإحسانًا : (أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ)[1] .

وينشد حينئذ بلسان حاله ومقاله :

اَلْحَمْدُ للهِ لَا تَفْنَى مَحَامِدُهُ
وَالْحَمْدُ للهِ فى الآصَالِ وَالْبُكَرِ
مَنْ يَهْدِهِ الله أَضْحَى عَالِمًا فَطِنًا
بِاللهِ فى كُلِّ مَايَبْدُو مِنَ الصُّوَرِ

---

(١) لقمان : ١٤ .

يَاطَالِب الْوَصْلِ جُدْ بِالنَّفْسِ مُلْتَفِتًا
عَنْهَا إلى مَنْزِلِ الأَشْيَاء بِالْقَدَرِ
فَإِنْ ظَفِرتَ فَأَنْتَ الْفَرْدُ وَالْعَلَمُ الْـ
ـمَنْعُوتُ بِالْحُسْنِ وَالحسْنَى لِذِى نَظَرِ

ومنها : أى من اصطلاحاتهم ذكر القرب والاستشراف والمراقبة ؛ وفسر الشيخ معنى القرب فقال :

[قربك منه أن تكون مشاهدًا لقربه ، وإلا فمن أين أنت ووجود قربه ؟] .

قلت : إذا حققت أن الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته ، علمت علم يقين أن الأكوان والمكان والزمان لاوجود لها ، وأن الحق كما كان وجوده وحده ولا أين ولا مكان ، بقى كذلك لا أين ولامكان ولازمان ، نور أحديته محا وجود الأكوان ، فانتفى بوجوده الزمان والمكان ، ولم يبق إلا الواحد المنان .

وفى البخارى عنه صلى الله عليه وسلم :

« يَقُولُ الله تَعَالَى : يَسُبُّ ابْنُ آدَمَ الدَّهْرَ وأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِى اللَيْل وَالنَّهَارُ » .

فالوجود الحقيقى إنما هو لذاته وأثر صفاته ، تجلى واستتر واختفى فيما ظهر .

فإذا علمت هذا علمت أنه تعالى قريب من كل شىء ، محيط بكل بشىء ، ولاشىء إلا الذى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ)[1] .

لكن حكمة الحكيم أثبتت الحادث والقديم ، فمن فتح الله عين بصيرته شهد عدمه لوجوده ، فأبصر الحق محيطًا به ، وماحيًا لوجوده . ومن طمس الله عين بصيرته لم ير إلا الفرق ولم يدرك إلا البعد ، فإذا أراد الله أن يقربه إليه فتح شعاع بصيرته ، فيبصر الحق قريبًا منه ومحيطًا به .

---

(١) الشورى : ١١ .

روى أن الشيخ أبا الحسن رضى الله عنه قال يومًا بين يدى أستاذه : اللهم اغفر لى يوم لقائك ، فقال له شيخه هو أقرب إليك من ليلك ونهارك ، ولكن الظلم أوجب الظلام ، وسبْق القضاء حكم بالزوال عن درجات الأنس ومنازل الوصال ، وللظالم يوم لايرتاب فيه ولايحتال ، والسابق قد وصل فى الحال : (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لٰكِنِ الظَّالِمونَ الْيَوْمَ فى ضَلَالٍ مُبِين)[1] . اهـ كلامه رضى الله عنه .

فمعنى قربك من الحق أن تكون مشاهدًا لقربه منك قرب وجود وإحاطة ، وذلك بعد أن تلطفتْ عوالمك ، وفنيتْ دائرة حسك ، وحينئذ يتحقق قربك منه .

قال تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاس)[2] وقال تعالى : (أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ)[3] الآية .

وإن لاتعتقد هذا ، واعتقدت وجود نفسك وثبوت حسك الوهمى ، فلا تشاهد إلا البعد ، فمن انت ووجود قربك الحسى من نوره اللطيف حتى تراه بعين الحس ؟ فما دمت فى عالم الأشباح ، فأنت بعيد من عالم الأرواح ، فى حال قربك منه كما قال القائل :

وَمِنْ عَجَبٍ أنِّى أحِنُّ إِلَيْهِمُ
وَأَسْأَلُ شَوْقًا عَنْهُمُ وَهُمُ مَعِى
وَتَبْكِيهِمُ عَيْنِى وَهُمْ بِسَوَادِهَا
وَيَشْكُو النَّوَى قَلْبِى وَهُمْ بَيْنَ أضْلُعِى

سبحان من بعّد قومًا فى حال قربهم ، وقرّ قومًا من غير بعدهم ، وراجع ماتقدم لنا فى الشرح عند قوله : شعاع البصيرة تفهم المسألة على أصلها . وحق هذه الحكمة أن تتقدم على التى قبلها ، لأن القرب سابق على الوصول ، ولما

---

(١) مريم : ٣٨ .
(٢) الإسراء : ٦٠ .
(٣) فصلت : ٥٣ .

ترتب على ذكر الوصول من ذكر الواردات والأمر قريب ، والله تعالى أعلم .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه فى شرح هذه الحكمة : القرب فى الجملة على ثلاثة أوجه :

أحدها : قرب الكرامة ، وهو تقريب الحق عبده حتى يكون مشاهدًا لقربه منه فيتولاه دون ماسواه .

الثانى : قرب الإحاطة ، إحاطة العلم والقدرة والإرادة ، وعموم التصرف ، وهذا هو قرب الحق من عبده .

الثالث : قرب المناسبة والمسافة ، ولا يصح فى جناب الربوبية ، لاستحالة المسافة عليه ونفى مناسبة العبد للرب ، فتقدير الكلام قربك منه على وجه الكرامة أن تكون مشاهدًا لقربه منك على وجه الإحاطة ، وإلا فمن أين أنت ووجود قربه على وجه التناسب والمسافة اهـ .

وإنما نقلته لعلمى أن الكتاب يطالعه من يحسن العوم ومن لايحسنه ، فإذا خاف من البحر وجد جزيرة يأوى إليها ؛ وبالله التوفيق .

ومن حصل على مقام القرب والوصول ، ترد عليه الحقائق العرفانية ، والأسرار الربانية ، والعلوم اللدنية ، تارة ترد مجملة ثم يقع التفصيل ، وتارة مفصلة وهو غالب واردات أهل التمكين ، والغالب أن هذه الواردات إنما ترد بعد الفتح والوصول ولذلك قلنا : الأحسن لو قدم مقام القرب ثم يذكر مقام الوصول ليتصل بهذه الحكمة التى تكلم فيها على الواردات حيث قال :

[الحقائق ترد فى حال التجلى مجملة ، وبعد الوعى يكون البيان ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه] .

قلت : الحقائق هى مايرد على قلب العارف من تجليات العلوم والحكم والمعارف ، فتارة تكون علومًا ، وتارة تكون حكمًا ومعارف ، وتارة تكون كشفًا بغيب كان أو سيكون .

وحكمة ذلك أن الروح إذا تخلصت وتصفّت من غبش الحس كان غالب مايتجلى فيها حقًّا . ثم إن هذه الحقائق قد ترد فى حال التجلى مجملة فيقيدها

الإنسان كما تجلب ثم يتفكر فيها فيتبين معناها ، فبعد الوعى وهو الحفظ يكون البيان .

ثم استدل بآية الوحى لأن الوحى على أربعة أقسام : وحى إلهام ، ووحى منام ، ووحى إعلام ، ووحى أحكام ، فشاركت الأولياء الأنبياء فى ثلاثة : وحى إلهام ، ووحى منام ، ووحى إعلام وهو الفهم عن الله ، وانفردت الأنبياء بوحى الأحكام فالأولياء لهم وحى الإلهام ويكون أولا مجملا فى القلب ، فإذا قرأه ، أظهر تتبعه وبينه ، قال تعالى : (فَإِذا قَرأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) كما قرأناه عليك (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)[1] .

حتى تفهمه وتبينه للناس . كان عليه الصلاة والسلام يعالج من التنزيل شدة مخافة أن ينساه ، فلما نزلت الآية كان يستمع لجبريل ، فإذا فرغ قرأه كما أنزل ، فالوحى الذى هو وحى أحكام ، مصون فلا ينسى ، بخلاف وحى الإلهام ، فلذلك ينبغى للولى أن يقيد تلك الواردات قريبًا ، فإن الحكمة فى حال التجلى تكون كالجبل ، فإذا غفل عنها ترجع كالجمل ، فإذا غفل عنها بعدُ رجعت كالثور ، ثم كالكبش ، ثم كالبيضة ثم تغيب ، ولذلك كان شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه لاتفارقه الدواة والقلم والقرطاس ليقيد المواهب ، وكذلك كان أشياخنا وكانوا يأمرون بذلك .

قلت : وجُلّ هذا الشرح الذى نقيده إنما هو مواهب ، لأنى أكتب الحكمة ولا أدرى ماأكتب فأقف مفتقرًا إلى ماعند الله ، فإذا ورد شيء من عند الله كتبته أولا ، ثم أنظر فى كتب القوم إن وجدت نقلا غريبًا موافقًا لما أفاض الله على كتبته ، وإلا تركته واكتفيت بما أتى الله ، وكثيرًا ما نكتب الكلام ثم نطالعه ونستغرب أنى كتبته أو صدر منى ، وذلك كله ببركة صحبة أشياخنا ، فجزاهم الله عنا أحسن جزائه .

ولقد كنت فى حال الرياضة والمجاهدة إذا أردت أن نتكلم فى التفسير أو غيره ، نشرع فى الكلام ثم نغيب ، فكنت أحس بالكلام يخرج منى من غير

---

(١) القيامة : ١٨ ، ١٩ .

اختيار كأنه السحاب ، فتصدر منى علوم وحكم ، فإذا سكت لم يبق منها إلا القليل .

ولقد حضر معنا ذات يوم رجل صالح كبير السن فسمع ذلك ، فقال والله لقد حضرت مجالس العلماء والصالحين والله مارأيت مثل هذه الجواهر واليواقيت التى تخرج من سيدى فلان . فبقيت كذلك مدة غير أنى لم نكن نقيد شيئًا ، ثم انتقل ذلك إلى حال التقييد فصار القلم عندى أفصح من عبارة اللسان .

وكان بعض العارفين يقول لأصحابه : إذا كنت أتكلم عليكم أكون أستفيد من نفسى مايجريه الله على لسانى كما تستفيدون أنتم منى ، وفى ذلك يقول ابن الفارض رضى الله عنه :

وَلَا تَكُ مِمَّنْ طَيَّشَتْهُ طُرُوسُهُ
بِحَيْثُ اسْتَخَفَّتْ عَقْلَهُ وَاسْتَفَزَّتِ
فَثَمَّ وَرَاءَ النَّقْلِ عِلْمٌ يَدِقُّ عَنْ
مَدَارِكِ غَايَاتِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ
تَلَقَّيْتَهُ مِنِّى وعَنِّى أَخَذْتَهُ
وَنَفْسِىَ كَانَتْ مِنْ عَطَائى مُمِدَّتى

وكان الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه إذا استغرق فى الكلام وفاضت عليه العلوم يقول : هلا رجل يقيد عنا هذه الأسرار ، هلموا إلى رجل صيره الله بحر العلوم أو كلامًا نحوه ، وكان يحضر مجلسه أكابر وقته كعز الدين بن عبد السلام وابن الحاجب وابن عصفور وابن دقيق العيد وعبد العظيم المنذرى ، وكان عز الدين بن عبد السلام إذا سمع كلامه يقول هذا كلام قريب عهد بالله .

وكان الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد يقول : والله مارأيت أعرف بالله من أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه . وكان فى كل سنة يطلع إلى القاهرة ويجتمع عليه مشايخ القاهرة ومصر ومن بتلك الناحية ، فيفيض عليهم بالعلوم والمواهب الربانية والأسرار اللدنية ، فلما مات رضى الله عنه واستخلفه أبو العباس المرسى جعل يطلع إلى القاهرة كما كان يفعل شيخه ، فاجتمع إليه جماعة من

أكابر مصر وعلمائها وقالوا : ياشيخ كان الشيخ أبو الحسن إذا جاء إلى هذا الموضع يجىء عندنا ونتبرك بقدومه ومانسمع منه من مواهب الله تعالى ، وأنت قد أقامك الله مقامه ، فنحب أن نتبرك بكلامك ، فقال لهم : إذا كان صبيحة غد نجىء إليكم إن شاء الله ، فلما كان صبيحة غد أمر أصحابه بالمسير إلى مصر وأمر بحمل رسالة القشيرى رضى الله عنه . قال ابن الصباغ فحملتها ووصلنا إلى جامع عمرو بن العاص ، فوجدناه قد امتلأ بأكابر أهل مصر وعلمائها ، فقال لى منتقد ومعتقد . قال : فجلسنا بشرقى الجامع ، فقال أخرج رسالة القشيرى فأخرجتها ، فقال اقرأ ، فقلت وما أقرأ ؟ قال : الذى يظهر لك ، ففتحنا الكتاب فوجدنا باب الفراسة ، فقرأت أول الباب فلما فرغت من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى : أغلق الكتاب ، ثم قال : الفراسة تنقسم إلى أربعة أقسام : فراسة المؤمنين ، وفراسة الموقنين ، وفراسة الأولياء ، وفراسة الصديقين . فأما فراسة المؤمنين ، فحالها كذا ومددها من كذا ثم تكلم بكلام عظيم . ثم انتقل إلى فراسة الموقنين فتكلم بطبقة أعلى . ثم قال : وأما فراسة الأولياء فمددها من كذا وحالها من كذا ، وتكلم فى ذلك بكلام موهوب غير مكسوب ، أذهل عقول الحاضرين واستغرق بذلك إلى أذان الظهر والناس يبكون ، ورأيت العرق ينحدر من جبينه حتى ينحدر على لحيته ، وكانت لحيته كبيرة اهـ .

وقال فى لطائف المنن : وكنت أنا لأمره من المنكرين ، وعليه من المعترضين ، لا لشىء سمعته منه ، ولا لشىء صح نقله عنه ، حتى جرت مقاولة بينى وبين بعض أصحابه وذلك قبل صحبتى إياه ، وقلت لذلك الرجل ليس إلا أهل العلم الظاهر ، وهؤلاء القوم يدعون أموراً عظاماً وظاهر الشرع يأباها ، فقال لى ذلك الرجل بعد أن صحبت الشيخ : تدرى ما قال لى الشيخ يوم تخاصمنا ؟ قلت لا ، قال : دخلت عليه فأول ما قال لى هؤلاء كالحجر ما أخطأك منه خير مما أصابك ، فعلمت أن الشيخ كوشف بنا ، قال : ولعمرى لقد صحبت الشيخ اثنى عشر عاماً ، فما سمعت منه شيئاً ينكره ظاهر العلم من الذى كان ينقله عنه من يقصد الأذى .

وكان سبب اجتماعى به أن قلت فى نفسى بعد أن جرت المخاصمة بينى وبين ذلك الرجل : دعنى أذهب فأرى هذا الرجل ؛ فصاحب الحق له أمارة لا يخفى شأنها ، فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم فى الأنفاس التى أمر الشارع بها ، فقال : الأول إسلام ، والثانى إيمان والثالث إحسان .

وإن شئت قلت : الأول عبادة ، والثانى عبودية ، والثالث عبودة .

وإن شئت قلت : الأول شريعة ، والثانى حقيقة ، والثالث تحقق أو نحو هذا ، فما زال يقول : وإن شئت قلت : وإن شئت إلى أن أبهر عقلى ، وعلمت أن الرجل إنما يغرف من فيض بحر إلهى ومدد ربانى ؛ فأذهب الله ما كان عندى إلى آخر كلامه .

فهذه الحقائق التى يفيضها الحق تعالى على قلوب أوليائه فينطقون بها تكون أولا مجملة ، فإذا حفظت وتقيدت تبين معناها ، فمنها ما تدركها العقول ويطابق المنقول ، ومنها مالا تفهمها العقول فتكلها إلى أربابها ولا تنتقدها عليهم بمجرد سماعها ، وانظر قول ابن الفارض رضى الله عنه :

فَثَمَّ وَرَاءَ النَّقْلِ عِلْمٌ يَدِقُّ عَنْ مَدَارِكِ غَايَاتِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ

ومع هذا كان الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه يقول : إذا عارض كشفك الصحيح الكتاب والسنة ، فاعمل بالكتاب والسنة ودع الكشف ، وقل لنفسك إن الله تعالى ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ، ولم يضمنها لى فى جانب الكشف والإلهام . ومثل هذا أيضاً قول الجنيد : إن النكتة لتقع فى قلبى من جهة الكشف فلا أقبلها إلا بشاهدى عدل : الكتاب والسنة ، ولا يلزم من عدم العمل بها انتقادها على أهلها ، فإن العلم واسع ، له ظاهر وباطن ، ومسائل الإلهامات تارة ترد على حسب العلم الظاهر ، وتارة ترد على حسب العلم الباطن ، فإن لم تفهم فسلم ودع ما تعرف لما لا تعرف .

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول : من آداب مجالسة الصديقين أن تفارق ما تعلم لتظفر بالسر المكنون ا هـ .

يعنى إن أردت أن تظفر بما عندهم من السر المكنون ، فأسقط عنهم الميزان فى

أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، وأما مادمت تزن عليهم بميزان علمك فلا تشم رائحة من سرِّهم .

وكان شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه يقول : طريقتنا لا ينال منها شيئاً إلا من يصدق بالمحال .

فإن أردت يا أخى أن يهب عليك نسيم أسرارهم ونفحات مواهبهم فدع ما تعرف إلى ما لا تعرف ، واغتسل من علمك وعملك حتى تبقى فقيراً إلى ما عندهم كما فعل شيخ طريقتنا الشاذلى رضى الله عنه .

ولقد حدثنى من أثق به أن الشيخ أبا الحسن رضى الله عنه طلع إلى الشيخ ابن مشيش رضى الله عنه بالميزان ، فلم يشم رائحة الولاية ، فرجع ثم طلع ثانياً كذلك ، فرجع كما طلع ، فلما أسقط الميزان واغتسل من علمه وعمله وطلع فقيراً أغناه الله ، قال له الشيخ ابن مشيش : يا أبا الحسن طلعت إلينا فقيراً من علمك وعملك فأخذت منا غنى الدارين ا هـ . نفعنا الله بذكرهم ، ونفح علينا ما نفح عليهم حتى نستغنى بهم غنى لا فقر معه أبداً آمين .

الوارد الإلهى

ثم إن الواردات التى تتجلى بالحقائق والعلوم إنما هى واردات أهل النهاية . وأما واردات أهل البداية فإنها تأتى قوية قهارية : إما بخوف مزعج ، أو شوق مقلق ، لترحله عن شهواته وعوائده ، وهى التى ذكرها الشيخ بقوله :

[متى وردت الواردات الإلهية إليك هدمت العوائد عليك ، إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها] .

قلت : الوارد الإلهى هو قوة شوق أو اشتياق أو محبة يخلقها الله فى قلب العبد ، وقد تنشأ عن قوة خوف أو هيبة أو جلال ، فتزعجه تلك القوة إلى النهوض إلى مولاه ، فيخرج عن عوائده وشهواته وهواه ، ويرحل إلى معرفة ربه ورضاه ، وقد تترادف عليه أنوار تلك المحبة والشوق ، فتغيبه عن حسه بالكلية ، وهو الجذب ، وإنما جمع الواردات باعتبار تلك المحبة والشوق ، فإنها لا تهدم عوائدها إلا إن كثرت وتزايدت ، وتسمى أيضاً هذه الواردات نفحات .

قال عليه الصلاة والسلام : « إنَّ للهِ نَفَحَاتٍ فَتَعَرَّضُوا لِنَفَحاتِهِ » .

فمن لم ترد عليه هذه الواردات اختياراً فليتعرض لها بصحبة العارفين أهل الإكسير الذى يقْلب الأعيان ، فإن صحبهم ولم ترد عليه فليخرق عوائد نفسه من الظاهر فإنها تدخل منه إلى الباطن ، فمتى وردت عليك حينئذ تلك الواردات الإلهية هدمت العوائد عليك وأفسدتها لديك ، فترد عزك ذلا ، وغناك فقراً ، وجاهك خمولا ، ورياستك تواضعاً وحنوًّا ، وكلامك صمتاً ، ولذيذ طعامك خشناً ، وشبعك جوعاً ، وكثرة كلامك صمتاً ، وقرارك فى وطنك سياحة وسفراً ، هكذا شأن الوارد الإلهى يخرب العوائد ويهدمها ، فهو كملك جبار ذى جيش طغاة دخل قرية أو مدينة فأفسد بناءها وغيّر عوائدها . قال تعالى :

(إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا) أى نزعوها وخربوها (وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً) أى رؤساءها أتباعا مرءوسين (وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ)[1] .

أى هذا شأنهم ، والاستشهاد بالآية فى غاية الحسن والمناسبة .

ثم ذكر الشيخ علة هدم الوارد عوائد الإنسان فقال :

[الوارد يأتى من حضرة قهار ، لأجل ذلك لا يصادمه شىء إلا دمغه ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق] .

قلت : إنما كان الوارد الذى يرد على قلوب السائرين أو الطالبين قويًّا شديداً ، لأنه يأتى من حضرة اسمه تعالى القهار ليدمغ بقهريته كل ما وجد فى النفس أو القلب من الأغيار ، وإنما قلنا من حضرة اسمه القهار ، لأن الحق تعالى له حضرات بعدد أسمائه ، فاسمه تعالى القهار يتجلى من حضرة قهريته ، واسمه جميل يتجلى من حضرة جماله ، واسمه جليل يتجلى من حضرة جلاله ، واسمه رحيم يتجلى من حضرة رحمته ، واسمه الحليم يتجلى من حضرة حلمه ، واسمه الكريم يتجلى من حضرة كرمه ، وهكذا . فكل اسم يخرج تجليه على وفق حضرته . قال تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)[2] .

---

(١) النمل : ٣٤ .

(٢) الحجر : ٢١ .

ولو كان هذا الوارد الذى يرد على قلوب أهل البداية من حضرة الرحيم أو الحليم أو الجميل ما أمكن أن يدفع بحكمة الله ما صادمه من الباطل .

وشبه الشيخ : الباطل : وهو كل ما سوى الله بحيوان له دماغ ، فإذا ضرب دماغه وتشتت مات ، كذلك الباطل إذا صادمه الحق أهلكه وتشتت دماغه . فالوارد الإلهى محض حق ، فإذا صادم الباطل دمغه وقتله ، ولذلك أتى بالآية التى نزلت فى شأن القرآن مع الكفر ، فإن الكفر تشتت واضمحل حين نزل القرآن ، كذلك السوى إذا تجلى الحق بقهرية نوره تشتت واضمحل .

وكان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه كثيرًا ما ينشد هذه الأبيات فى هذا المعنى :

فَلَوْ عَايَنَتْ عَيْنَاكَ يَوْمَ تَزَلْزَلَتْ أَرْضُ النفُوسِ وَدُكَّتِ الأَجْبَالُ
لَرَأَيْتَ شَمْسَ الْحَقِّ يَسْطَعُ نُورُهَا عِنْدَ التَّزَلْزُلِ وَالرِّجَالُ رِجَالُ

قال : والأرض أرض النفوس ؛ والجبال : جبال العقل .

يعنى أن الوارد الإلهى إذا ورد قويًّا من حضرة قهاريته تعالى ، دك وجود النفوس ، وتدكدكت منه جبال العقول ، فيكشف له حينئذ عن أسرار خارجة عن مدارك العقول غير مدركة بعبارة النقول ، فيصير صاحب هذا الوارد كله حقاً لا يصادم شيئاً إلا دمغه ، وهذا المعنى قصده شيخ شيوخنا القطب ابن مشيش بقوله : واقذف بى على الباطل فأدمغه ، طلب أن يكون حقاً محضاً يقذف به على السوى فيدمغه .

فإذا ذهب السوى واضمحل بقى الحق الذى لا يفنى ، ظاهراً لا يخفى ، كما أبان ذلك الشيخ ، فلله دره ما أدق نظره فى مناسبة الكلام وحسن التخليص لكل مقام حيث قال :

[كيف يحتجب الحق بشىء والذى يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر ؟] .

قلت : قد كرر الشيخ هذا المعنى فى كتابه مراراً تحريضاً على الجمع وتحذيراً من الفرق ، فقد تقرر أن الحق تعالى ليس محجوباً بشىء ولا يصح أن يحتجب

بشىء ، إذ لو احتجب بشىء وجودى لكان ذلك من أثر قدرته وقدرته لا تفارق ذاته ، فالصفة لا تفارق الموصوف ، فما ظهر شىء من بحر الجبروت إلا كان نوراً من أنواره ، وأثراً من أثر صفاته ، وقد قال صاحب العينية :

فَأَوْصَافُهُ وَالاسْمُ وَالأَثَرُ الَّذِى هُوَ الْكَوْنُ عَيْنُ الذَّاتِ وَاللهُ جَامِعُ

فلذلك تعجب الشيخ من تصور الحجاب فى حقه تعالى ، مع أن كل ما يبرز من عنصر القدرة كله نور من نور ملكوته ، فائضاً متدفقاً من بحر جبروته ، فتحققت الوحدة وانتفى الحجاب بالكلية ، فكل موجود نور الحق فيه حاضر موجود .

ثم إن الواردات هى الأحوال ، والأحوال نتائج الأعمال فى الغالب ، فلذلك ذكر الشيخ العمل وأمرك ألا تتركه حيث لم تذق حلاوته ، والعمل منه ما يجد العامل ثمرته وهو الحال والحلاوة ، ومنه مالا يجد ثمرته عاجلا ، فلا ينبغى تركه ، ولا ييأس من ثمرته ، ولا من قبوله كما أبان ذلك بقوله :

[لا تيأس من قبول عمل لا تجد فيه وجود الحضور ، فربما قُبل من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلا] .

قلت : قد تقدم قوله : من وجد ثمرة عمله عاجلا فهو دليل على وجود القبول ولا يقتضى المفهوم أنه إن لم يجد ثمرته فليس بمقبول ، بل هو مسكوت عنه ، فإن توفرت فيه شروط القبول من جهة الشريعة ، إن صحبه الإخلاص والتقوى والإتقان الشرعى فهو مقبول عند الله إن شاء الله ، سواء وجد ثمرته أم لا ، قال الله تعالى : (إِنما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) [1] وقال صلى الله عليه وسلم : « لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ مُسَمِّعٍ وَلَا مُرَاءٍ » .

فإن كنت متقياً لله فى ظاهرك وباطنك على قدر استطاعتك ، ومخلصاً لله فى أعمالك ، ثم لم تجد حلاوة العمل ولا حضور قلبك فيه ، ولم تجد ثمرته من أحوال الواجدين وأذواق العارفين ، فلا تيأس من قبوله عند الله ، فليس وجود الحال ولا الحلاوة شرطاً فى العمل إنما هى علامة ، والعلامة لا يلزم طردها ،

---

(١) المائدة : ٢٧ .

فربما قُبل من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلا ، فيعطيك ثوابه آجلا ، فلا ينبغى لك أن تستحقر عملك فتتركه ، لعدم حضورك فيه ، أو لعدم وجدان حلاوته ، بل يجب عليك أن تدوم عليه حتى تجنى ثمرته ، فمن قرع الباب يوشك أن يفتح له ، واسمع قول الشاعر :

اطْلُبْ وَلَا تَضْجَرَنْ مِنْ مَطْلَب فَآفَةُ الطَّالِبِ أنْ يَضْجَرَا
أَمَا تَرَى الْحَبْلَ بِتَكْرارِهِ فِي الصَّخْرَةِ الصَّماءِ قَدْ أَثَّرَا

واذكر قضية العابد الذى بقى فى مكة أربعين سنة وهو يقول : لبيك اللهم لبيك ، والهاتف يقول : لا لبيك ولا سعديك ، وحجك مردود عليك ، وهو ملازم لم يبرح من موضعه ولم يرجع عن عمله ، فجاء إليه رجل يزوره فلما قال الرجل العابد لبيك ، فقال له الهاتف لا لبيك ، فقام الزائر منصرفًا عنه وقال فى نفسه هذا رجل مطرود ، فناداه العابد مالك ؟ فقال : يا سيدى أنت قلت لبيك والقائل قال لك لا لبيك ، فقال له يا هذا لى أربعون سنة أسمع هذا الخطاب ، وهل ثم أبواب أخرى نأتيه منها ؟ أنا واقف ببابه ، ولوطردنى ألف مرة ما برحت عن بابه ، فقبله الحق تعالى ، فلما قال لبيك ، قال له الحق تعالى لبيك وسعديك أو كما قال .

فانظر من لازم الباب كيف التحق بالأحباب ، وفتح فى وجهه الباب ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام :

« أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ » وقال : « إِنَّ اللهَ لَا يَمَل حَتَّى تَمَلُّوا » .

فالمراد من العمل القيام برسم العبودية ، وتعظيم جانب الربوبية ؛ وليس المراد منها طلب الأحوال والمقامات ، فإن ذلك قدح فى الإخلاص عند أهل التوحيد الخاص .

وقد يكون الحال سبباً فى الحجاب لمن وقف معه واستحلاه ، ولذلك قال بعضهم : اتقوا حلاوة الطاعة فإنها سموم قاتلة ، أى لمن وقف معها ، وكم ينفذ

لى شهود المعبود بها ، فلا تكن عبد الحال وكن عبد المحول كما نبه على ذلك المؤلف بقوله :

[لا تزكين واردًا لا تعلم ثمرته ، فليس المراد من السحابة الأمطار ، وإنما المراد منها وجود الأثمار] .

قلت : ثمرة الوارد هو هدم العوائد ، واكتساب الفوائد ، والتخلية من الرذائل ، والتحلية بالفضائل .

وإن شئت قلت : ثمرة الوارد الصادق هو ما ينشأ عنه من الذلة والانكسار ، والخشوع والسكينة ، والوقار والحلم ، والزهد والسخاء والإيثار ، والتخلص من رق الشهوات الجسمانية ، والعوائد النفسانية ، والخروج من سجن الأكوان ، والترقى إلى فضاء الشهود والعيان ، والتحرر من يد الأغيار ، والتمحض إلى تحقيق المعارف والأسرار وكل هذا قد تقدم للمؤلف مفرقاً .

قال فى أول الكتاب : أورد عليك الوارد لتكون به عليه وارداً . أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الأغيار ، وليحررك من رق الآثار . أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك . وقال فيما تقدم قريباً : متى وردت الواردات الإلهية إليك ، هدمت العوائد عليك . وقال أيضاً : الوارد يأتى من حضرة قهار لأجل ذلك لا يصادمه شيء إلا دمغه .

فإذا ورد عليك وارد ولم يترك فيك هذه الخصال فلا تزكه ، واتهم نفسك فيه ، لئلا يكون شيطانيًّا ، فإن الوارد الإلهى تعقبه برودة وسكون ، وزهد وطمأنينة وفترة ، والوارد الشيطانى تعقبه حرارة وقساوة ، وتكبر وصولة ورؤية نفس ، فليس المراد من الحال فرحه وخفته وشطحته إنما المراد منه ثمرته ، فهو كسحابة الأمطار ، فليس المراد منها وجود الأمطار ، وإنما المراد ما ينشأ عنها من وجود الأثمار ، فلا تطلب بقاء الحال فقد يكون بقاؤه ضرراً لك ، فإن دوام الأمطار يعود نفعها ضرراً وإلى ذلك أشار بقوله :

[لا تطلبن بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها ، وأودعت أسرارها ، فلك فى الله غنى عن كل شيء ، وليس يغنيك عنه شيء] .

قلت : طلب الشيء يدل على محبته ، ومحبة الشيء عبودية له ، والحق تعالى لا يحب أن تكون عبدًا لغيره فلا تطلب معه حالا ولا مقاماً ، فإن وردت عليك

الأحوال وهى الواردات الإلهية ثم انقشعت وانصرفت ، فلا تطلب بقاءها بعد أن بسطت فى قلبك أنوارها ، فأخرجت منه ظلمة الأغيار وصور الآثار ، وأودعت أسرارها من مزيد الإيقان وشهود العيان .

أو تقول : لا تطلب بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها من هدم عوائد نفسك عليك ، فتحررت من رق الشهوات الجسمانية والعوائد النفسانية ، وتخليت من الرذائل وتحليت بالفضائل ، فهذه آثار أنوار الواردات . وبعد أن أودعت أسرارها فى قلبك من اليقين والطمأنينة والمعرفة ، أو من الزهد والرضا والتسليم ، أو من الخشوع والتواضع والذلة والانكسار ، فهذه علامة صدق الوارد وحصول نتيجته . فإذا حصلت النتيجة فلا حاجة للشيخ لشىء ، فلك فى الله غنى عن كل شىء ، فلا تفتقر إلى شىء ، وليس يغنيك عنه شىء ، وسيأتى للشيخ ماذا فقد من وجدك ؟ وما الذى وجد من فقدك ؟ وقال الشاعر :

لِكُلِّ شَىْءٍ إِذا فَارَقْتَهُ عِوَضٌ وَلَيْسَ للهِ إِنْ فَارَقْتَ منْ عِوَضِ

وفى الإشارة عن الله تعالى ، لا تركنن إلى شىء دونى فإنه وبال عليك وقاتل لك ، فإن ركنت إلى العلم تتبعناه عليك ، وإن آويت إلى العمل رددناه إليك ، وإن وثقت بالحال وقفناك معه ، وإن آنست بالوجد استدرجناك فيه ، وإن لحظت الخلق وكلناك إليهم ، وإن اغتررت بالمعرفة نكرناها عليك فأى حيلة لك ؟ وأى قوة معك ؟ فارضنا لك ربًّا حتى نرضاك لنا عبدا ا هـ .

وسئل أبو سليمان الدارانى عن أفضل ما يتقرب به إلى الله ؟ فقال : أقرب ما يتقرب به إلى الله أن يطلع على قلبك وهو لا يريد من الدنيا والآخرة سواه ، وفى ذلك قيل :

مَنْ عَرَفَ اللهَ فَلَمْ تُغْنِه مَعْرِفَةُ اللهِ فَذَاكَ الشَّقِى
مَا يَصْنَعُ الْعَبْدُ بِعِزِّ الغِنَى وَالْعِزُّ كُلُّ الْعِزِّ لِلْمُتَّقِى

فإذا حصل لك الغنى بالله استغنيت عن كل ما سواه ، فلا تتطلع إلى بقاء حال ولا وارد ولا مقام ، سوى شهود الملك العلام ، فتطلعك إلى بقاء حال أو وارد دليل على عدم غناك به ، كما أبان ذلك بقوله :

[تطلعك إلى بقاء غيره دليل على عدم وجدانك له] .

قلت : إذ لو وجدته ما طلبت شيئاً ، ولا افتقرت إلى شيء أصلا ، فكل من يفرح بالوارد والحال ، فهو غير متحقق بالوصال ، وكل من يفتقر لغير الله فليس بعارف بالله وكل من يحتاج إلى شيء أو يركن إلى شيء فليس من الله فى شيء ، وليس على شيء ، ولله در القائل ويقال إنه الغزالى حيث قال :

كَانَتْ لِقَلْبِىَ أَهْوَاءٌ مُفَـرَّقَةٌ ... فَاسْتَجْمَعَتْ مُذْرَأَتْكَ الْعَيْنُ أَهْوائى
فَصَارَ يَحْسُدُنِى مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ ... وَصِرْتُ مَوْلَى الْوَرَى مُذْ صِرْتَ موْلاَئِى
تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دُنياهم ودينهمُ ... شُغْلا بِذِكْرِكَ يَادِينِى ودُنْيائِى

ومن علامة الغنى به أيضاً الأنس به ، والوحشة من غيره ، فالله يغنى عن كل شيء ، ولا يغنى عنه شيء ، فإذا فقد حالا أو مقامًا سوى شهود ربه ثم استوحش منه فهو بعيد من الحضرة كما أبان ذلك بقوله :

[واستيحاشك بفقدان ما سواه دليل على عدم وُصلتك به] .

قلت : استيحاشك بفقدان الأحوال والواردات دليل على عدم وصلتك ، إذ لو وصلت إليه لم تستوحش من فقدان شيء ، وفى الحقيقة ما فقدت شيئاً . وهذه علامة الغنى بالله : أنه إذا فقد شيئاً مما هو فى العادة يؤلم فقده كالولد مثلا أو قريباً أو فاتته عبادة حسية مثلا أو غير ذلك ، فإنه يرجع للمعرفة ، فالله يغنى عن كل شيء وهو المقصود من العبيد . قال الله تعالى :

(لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ)[1] .

قال فى التنوير : اعلم أن الله سبحانه إنما يدخلك فى الحال لتنال منها لا لينال منك ، وإنما جاءت لتحمل هدية التعريف من الله إليك فيها ، فتوجه إليها باسمه المبدى ، فأبداها وأبقاها حتى إذا وصلت إليك ما كان لك فيها ، فلما أدت الأمانة توجه إليها باسمه المعيد فأرجعها وتوفاها ، فلا تطلبن بقاء رسول بعد أن بلغ رسالته ، ولا بقاء أمين بعد أن بلغ أمانته ، وإنما يفتضح المدَّعون بزوال

(١) الحديد : ٢٣ .

obeikandi.com

الأحوال ، بعزلهم عن مراتب الإنزال ، هنالك يبدو العوار ، وتنهتك الأستار ، فكم من مدَّع الغنى بالله ؛ وإنما غناه بطاعته أو بنوره أو فتحه ، وكم من مدع العز بالله ، وإنما إعزازه بمنزلته وصولته على الخلق ، معتمدًا على ما ثبت عندهم من معرفته ، فكن عبد الله لا عبد العلل ، وكما كان لك ربًّا ولا علة فكن عبداً له ولا علة ، لتكون له كما كان لك ا هـ . هذا آخر الباب الثالث والعشرين .

وحاصلها : الكلام على القرب والوصال ، وما ينشأ عن ذلك من مقامات الإنزال ونتائج الأحوال ، والغنى بالله عنها فى كل حال ، فهذا هو النعيم على الدوام ، والاتصال الذى فتح به الباب الرابع والعشرين فقال رضى الله عنه :